الى تلك الدرجة ابيض واسود؟

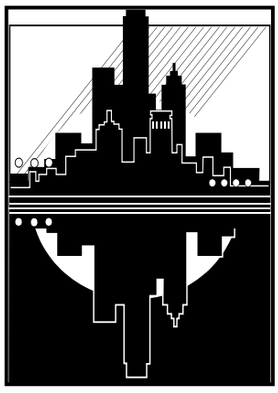

بالواقع بعض الناس لا يُميّز الالوان ولكن حسّهم في تمييز الالوان والميول السياسية بما في ذلك انتمائمهم وشراكتهم الاجتماعية دقيقة جداً تماماً كردة فعل الثور للون الاحمر مع انه يراه رمادياً. ليس للسياسة دين ولا لون وجزم؛ لانها وحش مفترس في مجالات المكايد الكونية كتجسيم للشر المتماثل والمُضاد في حلبة المدّعين والمنافسين. يضعنا هذا الترابط بما تفوّه به يوليوس قيصر: "حتى أنت يا بروتوس". ستملي المنافع الخاصة والتعليم والتعقل والوعي الشعبي للفرد ومن الممكن الامّة، الالوان التي نضع انفسنا تحتها ونفتخر بها ونتفاعل معها في طنجرة الضغط الاجتماعية التي نختبئ فيها.

بالوقع نحن اتباع شخص او شئ، ان كان لمنفعتنا او خراب بيتنا، ليس لانه خطأ ان نكون اتباع، ولكن يبدو وكأننا لم نُفطم بعد حيث لا تزال رضاعة كل انواع الافكار المرعبة والتعليلات المُشوّهة تدفعنا نحو هاوية لا قعر لها.

منذ زمن قريب وفي احدى الظهيرات المشمسة لنيويورك في تشارينها المجيدة، حضيت بالقفز الى عربة صبواي متجه من مانهاتن الى بروكلين. لأول وهلة افتكرت كم أنا محظوظ لتكن العربة لي وحدي آملاً ان اعوض الوقت بالنوم. لحسرتي أُجهض حلمي قبل ان يُتاح له ان يتحقق؛ ملأ غفر من الناس نصف العربة ومعها بدأ الفلم بدون اعلان، او عرض مُسبق او لائحة بالمشاركين او حرية الاختيار.

وجدت نفسي مرغماً مع الآخرين ان نصبح متفرجين في حلبة لا قوانين لها ولا اصول ولا لياقة او احترام لرفقاء الرحلة. ولدان يعلبان الهاكي يرتطمان بالركاب وامهم تراقبهم وهي تبتسم راضية؛ امرأتان تتهامستان وتقهقهتان؛ امرأة اعمال تقرأ وتصلح في اوراقها منغمسة في عالمها؛ حجز البعض مقعدين، رجل مُتأنق اللباس يبدو مضطرباً ويُظهر اضطرابه في حركة جسمه المستمرة كمن من كان نومه غير مريح رامياً القلم من يد الى يد بيما يلف راسه في كل الاتجاهات. قليلون نائمون وغيرهم ترنحت رؤوسهم الى الامام والوراء، يمنة ويسرى متفحصين الركاب الآخرين، والباقي كانوا واقفين.

بعد رؤية العربة تمتلئ عند كل وقفة للصبواي، لا يسع المرء الا ان يتحسّس معجباً بالخليط الذي تشتهر به نيويورك وانت تشاهد عدد معين من الاعراق يركبون ويغادرون في كل محطة. تبدو العربة الآن مثل بالون متعدد الجنسيات والالوان على وشك الانفجار باى لحظة، يشبه علبة مكسدة بالسردين، معها تفرض عليك غالباً الالفة ولكن نادراً ما تتمناها.

بعدما قطعنا الجسر، شعرتُ انا وركاب العربة ان الازدحام نوعا ما خف وبدأت على محيانا علامات الانفراج من الاحساس الكلوسترفوبيك الذي غزى عقولنا مرسلاً صدمات مرعبة كهربائية سرت في عامود فقرنا واجسادنا.

بالرغم من تلوي وترنح العربات كالحية وقرقعتها الرتيبة، مع زعيق الدواليب على السكك العارية، والوقوف في والاقلاع من محطات معينة، وركوب ونزول الركاب المستمر، وشخير بعض الغافين، من الممكن ان يستشف الواحد جدالاً متسعراً بين ركاب اثنين بمنتصف العمر، جالسان مقابلة ولكن بانحراف، احدهما ابيض والآخر اسود. لا اعلم لحد الآن اذا كانا يعرفان بعضهما البعض او التقيا فقط في الصبواي. ولا يعرف احد سبب اشتعال هذا الجدل. يبدو الابيض وهو يحتضن مجموعة من الجرائد والمجلات كمن يعمل في مجالات النشر والنقد، بينما اعطى الاسود بطقمه الرمادي انطباعاً كموظف حكومي.

اعتلت وتعالت حدة المناوشة لدرجة انها امتزجت مع قرقعة العربات، واصبح الجدل محتداً ومركزاً لولا اعجوبة من الله القدير لوقعت جريمة قتل في تلك اللحظة. هرع كثيرون الى العربات الآخرى هاربين من المجزرة الكلامية ومن الممكن الجسدية، لو قرر المشاغبان ان يحلا اختلافاتهما الاجتماعية السياسية في مبارزة ثنائية القرن العشرين حيث يتأذى بسهولة المتفرجين اكثر من المتبارزين.

كان موضوع الجدل "الانعاش الاجتماعي"، هذه الدائرة المشهورة والشائنة الخيرية التي تكافئ منتفيعيها بكل انواع اللذائذ: ايجار البيت والعناية الطبية وبطاقة طوابع لشراء الطعام ومبالغ للمصاريف بالاضافة وبدون تحديد تشجيع الكسل والبطالة والاتكالية والاستغلال والابتزاز وتفشي الانحلال الاجتماعي والمواقف العابثة فساداً.

من الواضح ان لا احد منهما همّه حقّ الركاب الآخرين لرحلة هادئة لان مناوشتهما اصبحت مسموعة، وعليه يبدو ان رغبتهما كانت ليعبرا عن ارائهما آملين ان يشجعا الآخرين لينظموا الى المجادلة او ان يحثا الرهائن على التقدير باعجاب لجدلهما ولمستوى الذكاء الذي ابديا.

بينما كان الاسود يتكلف مبتسماً، كانت اول افتاحية مسموعة بوضوح من الابيض:

"سئمت وضجرت المستغلين امثالك، ٩٠% من منتفيعن الانعاش الاجتماعي هم دجالين ومنافقين ولصوص... انتم تسرقون اموالنا، نحن ... نحن ... نحن نشقى وندفع الضرائب بينما امثالك يربضون على قفاهم السمن ويقبضوا... لا اراك مريضاً...

استمرا في مجادلتهما غير عابئان بطلوع ونزول الركاب في كل محطة، وبالرغم من استياء رفقاء رحلتهما، لم يكن عندهما اي لياقة لتخفيض صوتهما ليوفرا على مسمع الركاب مثل هذا الجدل البيزنطي.

غير عالم كيف ولماذا بدأت هذه المجادلة وماذا قال أي منهما ليشعل مثل هذه المجابهة المتعاضدة الكلامية والصاخبة، يتسائل الفرد عن خلفياتهما وتعليمهما ومهنهما ونشاطاتهما اليومية بما في ذلك انتمائهما السياسي والوطني. يبدوان كأنهما فتيان مدينة اذكياء ولكن مصممان على التفاعل في محور شرق يُطارد غرباً بدلا عن تلاقي الشمال مع الجنوب في ارائهما وتبصرهما ومفهومهما.

قاطعه الاسود محاولا التغطية على نبرة الابيض المتعالية:
خاطئ ... خاطئ ... خاطئ ... خاطئ والف مرة خاطئ ... ليس كل شئ ابيض واسود ... يا رجل ... دعني اعلمك لماذا اقبض من الانعاش الاجتماعي.

قاطعه الابيض: لانك مريض ... انا على يقين بان ظهرك يؤلمك!؟ اقدم كذبة في الكتاب!

لا ... لا ... لا ... يا رجل، اجاب الاسود واضاف: يجب ان تغير نظراتك ... لا اعتقد بانك تفهم الموضوع ... كما تتبين...

الابيض: لا اتبين...

تجاهل الاسود الاعتراض واكمل: لا علم للانعاش الاجتماعي بالسبب الحقيقي ... هم لا يدققون في الخزعبلات التي يدوّنها الناس في طلباتهم... اقبض من الانعاش الاجتماعي ... لانه حقّي الرجعي المُستحق ... لقد اخضعتنا امريكا البيضاء للعبودية لسنين عديدة ... كما تعرف ... وحان الوقت للبيض ان يعملوا ويدفعوا لنا تعويضاً.

هل فقدت عقلك، اسرع الابيض متسائلاً ومدمدماً: متى كنت عبداً رقيق ؟ لا يبدو انك في الخمسين من العمر ... لا يعدو عمرك الخمسة والعشرين!

اجاب الاسود بهدوء: هذا ليس من الاهمية كما ترى ... لقد قلت لك ليس كل شئ ابيض واسود.

لا ارى ... اعلن الابيض محتجاً.

لانك اعمى اجاب الاسود منتقماً ولهذا السبب انت لا ترى واطلق سهامه: كلما حدث لاجدادي كأنه حدث لي ايضاً ... حان الوقت لقبض التعويض لطيلة حياتنا ... عليك ان تعمل وتؤمن لنا العيش.

احلام .. احلامة عذبة ... صدح الابيض...

لي كل الحق بان احلم، اعلن الاسود... كان لدى الدكتور كنج حلم والآن هو واقع ... حلمي ان يستعبد السود يوماً كل البيض ... اقول لك ... سيكون هكذا الحال.

قبل ان يستطيع الابيض الجواب حيث بدت علامات الغضب والاشمئزاز عليه، استمر الاسود في الشرح:
اقبض الآن وسيأتي يوم اقبض فيه اكثر من ذلك للاحداث الماضية... كما ترى ... مثل اليهود الذين يقبضون لحد الآن من امريكا بدل محرقات هتلر... ونحن مررنا بمذبحتنا على ايدي الاميركان البيض... وعلى الامريكان ان يعوضوا وسيعوضون.

اسرع الابيض مقتحماً: كم من العبيد يفكر مثلك؟ اتقارن وضعك لمحرقة اليهود؟ يجب ان تكون ممنوناً لحريتك ... و... و

مرة آخرى اقول لك هذا ليس مهم، ايها الابيض سميك العقلية... هذا ما اؤمن به وهو هدف حياتي ... وسالاحقه ... تعوض امريكا على اليهود دون ان تكون سببت محرقتهم ... لماذا لا يعوضون علينا للظلم الذي اقترفوه ضدنا؟

انتفض الابيض وهو لا يصدق ما يسع: اي ظلم واي تعويض تتكلم عنه؟ كل فرد في امريكا مرّ في وقت او آخر في تجربة ظلم... وليس فقط السود ... هل تعتبر نفسك امريكياً؟ لا شك انك معتوه ومكانك مستشفى المجانين.

الاسود: لا، انا افريقي اولاً وامريكي ثانياً وعليه انا افريقي امريكي...

الابيض: لهذه البلد حقوق عليك وتتطلب منك ان تكون اولاً وآخراً امريكي...

الاسود: لا احتاج لان اكون.

لا ادري ماذا يدور في عقول ركاب العربة في هذا الوقت، هل انهك الضجر عظامهم متمتعين بهذه التمثيلية الفكرية المتعدية او انهم كسلى وجبناء مثلي لا يجرؤون على مغادرة العربة او المشاركة في هذا التمثيل الدرامي التي يقدمه هذان؟

هل هم موافقون ... هل هم معارضون،؟ مع من ... وعلى اي جزء؟ اي نقطة؟ بقي الاستفتاء ونقاط الاصابات سرّ في فكر كل واحد لاي فريق يميل، ولا يعلم الا الله. اما بالنسبة لي، لقد فقدت الاحساس، وتعب عقلي وجهد جسمي، ولكن وجدت نفسي اعيد بعض ما سمعت واجادله مع نفسي بنفسي.

بدأت العربة وكأنها قاعة محكمة في رحلة الى لا مكان، تخيم عليها الكأبة والهدوء، ماعدا ضجيج العربة والترنح عند كل وقوف واقلاع، وقرقعة المناوشة بين الخصمين اللذان ينقصهما دبلومات المحاماة، ولكن من الممكن ان ينجحا بامتحانه في رمشة عين. حُضيت عربة محكمتنا باكثر من اثني عشر محلف متفرج ان كانوا راغبين او مرغمين، بدون قاض او حاجب محكمة، او مختزل او مارشال او شريف.

وثب الاسود وقال بصوت حاسم ومصمم: نُعتبر اقلية لها حقوق وامتيازات ... يحق لنا الحصول على وظائف دون ان تكون لدينا المؤهلات ... وامتيازات في الحصول على المنح الدراسية دون ان تكون لدينا العلامات ... ويحق لنا ان ننتفع من الانعاش الاجتماعي حيث يعمل البيض لاعانة السود.

الابيض: انت لست من الاقليات من الناحية العرقية عدداً... قاطع الابيض قحماً... انتم واحد من اكثرية امريكا ... الامريكان من كافة الاصول العرقية هم الاقلية الحقّة ومعاً يشكلون العامود الفقري لامريكا.

الاسود: معك حقا في هذه النقطة ولكن لم يكونوا مُسعبدين.

الابيض: لعلك تهذي ...يا أيّها السيد الافريقي الامريكي ... هذا البلد مليئ بالمهاجرين الذين هربوا من اوطانهم بسبب الاضطهاد والظلم والعبودية، وعندهم محبة واحترام اكثر لهذا البلد منك.

الاسود: دعهم ان يكون عندهم اكثر محبة ولكن ليجهدوا كي يعيلوني وكل الافريقيين الامريكان.

الابيض: بالوقع تدعو نفسك افريقي امريكي من ما يعني انك مهاجر ايضاً ... ليس السود بحاجة لامثالك تدافع عنهم لان اكثريتهم مواطنين صالحين .. الناس بتفكيراتهم المعوجّة امثالك يجب ان يرحّلوا من امريكا...

الاسود: لا زلت تلوّح بسيف سيادة البيض ... لا يجرؤ احد على ترحيلي...

عند موقف محطتي، هرعت دون ان التفت الى الوراء وبدون ان اتأنى لسماع الحكم، وانتابني خليط من الاحساس بالرعب والاستهجان، وشعرت بالاشمئزاز حتى ان معدتي انقلبت وكدت ان استفرغ على ارض المحطة.

لا علم لي بما جرى بعدما نزلت ... لم استطع ان افهم ما شاهدت في تلك الرحلة ... هل رأيتُ وجه التفسّخ والاحتكاك البشع او اكشفتُ حقيقة ما تحتية لمشاعر جامحة تجري كنهر تحت الارض يحاول ايجاد منفذ ليتدفق منه مدوياً بفيضان مفاجئ كارثي؟

قضيت ليال آرق لعدة ايام وانا لا اهضم الكراهية والاغواء والتعصب الذي يعتنقه بعض الناس على العمياني وبتصلف وانتقام من خلال تفكيرهم وقناعتهم البالية والتي لا حياة فيها. اعادت هذه التجربة ذكريات مشؤومة مُرّة وكئيبة للوحشية التي عشتها في بلدي الآم، لبنان، حيث نفس الناس، قبل اندلاع الحوادث بيوم واحد، كانوا يتغنون ممجدين بصوت واحد جمال الوطن وصحوا في الغد اعداء لبعضهم البعض في واحدة من اشنع الحروب الاهلية التي شهدها هذا العالم.

تتعكز مشاعر العشائرية والقبلية والوطنية والجنسية والتقاطعية والطقسية والدينية والعرفية والعرقية على اساس التفرقة ولا يسعها الا تنسيق الامور لتقوية الصراع بين شعوب نفس البلد والتي تذكرني بالمثل القائل: "انا واخوي على ابن عمي، وانا وابن عمي على الغريب".

لقد دنى يوم حساب هذا العالم من حيث آجلاً او عاجلاً، سيضم مجموعة كبيرة من الاوطان الحزبية القبلية، لكل من ينجح ان ينفصل وعليه اضيف، كل من كان لديه المشاعر الوطنية والانتماء العشائري والاعتقاد الديني والعقائد المتحالف عليها والميول السياسية والغرائز الاستقالية والاهداف والطموحات المستقبلية هي التي ستملي بقائهم معاً. وعليه، ستحتل بنايات ومسارح الامم المتحدة نصف جزيرة مانهاتن كي تتسع لكل الاحزاب والقبائل، بعدها تبني كل قبيلة معابداً وهياكلاً وكنيسات وكنائس وجوامع ويعمرون بنايات منفصلة لكلياتهم وجامعاتهم. اذا كان العالم سائراً في هذا الاتجاه، فاذن نرحب بك في بابل القرن العشرين.

هل امريكا القوة العظمى هي بطريقها الى الهلاك كالمملكات العظمى السابقة، ام ستبقى ذلك العلم المُرفرف عالياً للحضارة والتعايش والمساوة، والنور الذي يشعّ في قلوب وعقول كل الامريكان لتحثّهم على ان يستمروا بالعمل الجاد والانتاج والوطنية؟ عندها، يجد المُعاق والمُصاب على الدوام في امريكا الام الحقّة التي ستعتني به وتأمن له وسائل العيش، لان المُعافى والقادر يعمل كل واجبه كي يوفرّ بشرف ومحبة لهم بانسجام مع كل القيم التي يعتزّ بها الامريكان بغض النظر عن اصلهم او عرقيتهم. هذا ما جعل عظمة امريكا، وفقط يُمكن المحافظة على ذلك اذا بقي كل الامريكان متحدين.

وبغض النظر كم سيزيد عدد سكان هذا العالم بعاصماته ومدنه وقُراه، لا يزال ٨٠% من هذه الارض في حالة طبيعته الاصلية، عذراء وفطري. اذا وجدت بعض المعتوهين والضالين والغاضبين في كل موطن واذا وجدت اناس يحبون ان يستغلوا محتمين باعذار شتة، تشجّع والتفت حولك، غالبة الناس صالحون وشرفاء.

دع الماضي للماضي لان عامة الظالمين والمظلومين رحلوا واذا همنا الامر لنربّي جيلاً يتعلم من الماضي فبدوره ينجي الاجيال الآتية عذاب الكراهية والثأر وعدم الحسنات الخيرية. دعنا نحافظ على امريكا بلد الفرص حيث يقوم كل فرد بحصته ويقوم بخدماته لمجد الله القدير، وكتابه الذي اوحى بالنعيم الاوحد الباقي على هذه الارض. سافر كما سافرتُ أنا فيما يقارب ٤٧ سنة حول العالم، وستنمي فيك محبة صادقة وغير مقيدة لهذا البلد من حيث انك لا تصلي فقط ودائماً من اجل وحدته وانسجامه وازدهاره بل ايضاً تتعلم كيف تكرّمه وتحميه.

دع القادر والقادرة ان يشمّروا عن سواعدهم وان يعينوا المعاقين والمحتاجين الحقيقيين، وعليه، سينتج من غنى واخلاقيات وولاء الشعب المتحد لهذا البلد العظيم مصحوب بالمحبة الصادقة والتعايش السلمي والتسامح الرباني، عافية تامة لتعصبنا العرقي والاجتماعي، واذا همنا ان نحافظ على هذا النعيم، دعنا نتنافس في جعله افضلاً بالاحترام المتبادل والعناية المُحبة والروح الصالحة من اجلنا ومن اجل امريكتنا.